مقتطفات من كتاب

لا شيوعية ولا استعمار

عباس العقاد

حدوتة كتاب

إليك لأنك تعرف لماذا!!!؟

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com

عنوان هذا الكتاب هو خلاصةٌ موضوعةٌ في أربع كلمات، وهو النتيجة التي ينتهي إليها البحث في الكتاب؛ فموقف الشرقيين بين الشيوعية وبين الاستعمار أنه لا شيوعية ولا استعمار.

ولِمَن شاء أن يوازن بين الخطَرَيْن، ولكن الموازنة بينهما ليست من أغراض هذه الرسالة؛ فكلاهما خطرٌ وكلاهما حقيقٌ بالحذر والاجتناب، وقد يشتد الخطر من مرضٍ ويهون الخطر من مرض، ولكن الطب لا يبحث الأمراض ليوازن بينها وإن عرف مبلغ الخطر من كلٍّ منها، وإنما يبحث الأمراض ليمنعها جميعًا ويعالج كلًّا منها بالعلاج الذي يناسبه، ويحتاط لكلٍّ منها بالحيطة التي تدفعه، ومَن كان يعلم أن الزكام أهون شرًّا من السرطان، فهو لا يعلم هذا العلم ليختار الزكام ويدفع السرطان؛ إذ لا يُصَاب المريض بالداء إلا على اضطرارٍ لا خيرة فيه.

ولا حيدة بين مصيبتين، ولا إنصاف في الموازنة بين شرين؛ فإن الحيدة والإنصاف عمل القضاء الذي يتساوى لديه الطرفان، وأما المُهدَّد بالمَصَاب فلا حيلة له فيما يهدده غير العداء والمقاومة، فإنْ فعَلَ غير ذلك فهو واقفٌ من الشر موقف الغريب، بل هو واقفٌ موقف الغريب من نفسه ومن وجوده، كأنه ينظر إلى وجودٍ لا يعنيه.

ويأبى علينا الموازنة بين الشيوعية والاستعمار شيءٌ آخَر، وهو أن الشيوعية استعمارٌ يحيط بعيوب الاستعمار كله، وليس استعمارها طارئًا من طوارئ الضرورة الموقوتة تخضع له اليوم وتنبذه بعد فترة تقصر أو تطول، بل هو أساس من أسس المذهب الشيوعي لا فكاك منه في أول الطريق، ولا في آخِر الطريق، فإنه المذهب الذي يقرِّر لأصحابه أن السيطرة على ثروة الأمة شرطٌ لازمٌ للسيطرة على أزمة السياسة فيها، فمَن رفع يديه عن ثروة بلدٍ من البلدان فلا بقاء لسلطانه فيه.

فالشيوعية والاستعمار — من ثَمَّ — لا يتناقضان، ولا موازنة بينهما على هذا الاعتبار، وإذا جاز أن تنعقد الموازنة، فإنما تكون بين جهد الكفاح للشيوعية وجهد الكفاح للاستعمار، أو بين الخطر المُقبِل والخطر المُدبِر، وسيكون هذا مدار البحث في الفصول التالية لينتهي إلى نتيجةٍ واحدةٍ، وهي أننا لا نختار في مقاومة الخطَرَيْن إلا بمقدار ما نستعدُّ للمقاومة بسلاحها النافذ في جميع الأحوال.

فالشيوعية هي مذهب الطفل الممسوخ الذي نفهم أن الذنب على أبويه، وعلى البيت وعلى المدرسة، وعلى الأمة وعلى الخلق والخالق، ولكنه لا ذنب له في أمرٍ من الأمور، ولا حرج عليه أن يقعد عن كل عملٍ ويكسل عن كل واجبٍ، ويطالب بكل حقٍّ، ويسيء إلى كل إنسان.

والشيوعية هي بالإيجاز «أفيون الشعوب» الرخيص وخمرتها المبذولة، يبلغ من سخفها أنها تصم الدين بهذه الوصمة، وتذهل عن حقيقتها هي عن غباءٍ مفرطٍ أو عن لجاجةٍ في المكابرة والإنكار، وهذا القول الهراء عن الدين آخِر وصف يمكن أن ينطبق عليه، وأول وصف ينطبق على مذهب كارل ماركس بجميع معانيه؛ فالشعور بالمسئولية

ومن الخطأ المتواتر أن يُقَال: إن الشيوعية مذهب الطبقة العاملة أو الطبقة الفقيرة؛ لأنها في لبابها مذهب طباع وأخلاق يتقبله كل مَن تلوَّثت طبائعه بلوثة اللؤم والأنانية، وأسقط عن نفسه تبعة العمل ومئونة التكليف، وغلبت فيه الكراهية والحسد على محبة الخير للناس، ولا يتقبل الشيوعية فقيرٌ محرومٌ برئت نفسه من هذه اللوثة، واستقر في طبعه الإيمان بالجد والكفاية، وإنما يتقبلها المحروم إذا خامرته مع الحرمان رذيلة الحسد والكسل، وسوَّلت له الأنانية أن يطمع في جميع الحقوق، ويُسقِط عن كاهله جميل الفروض والتكاليف، ومَن كان كذلك من الأغنياء فهو شيوعيٌّ، وإذا لم يكن من العاملين باليد أو من ضحايا الحرمان.

إن الروسيين الذين أبادهم الحزب الشيوعي يُعَدُّون بالملايين، كان يكفي أن يكون أحدهم من ملَّاك الأرض ليُبَاح دمه بغير محاكمةٍ وبغير سؤال، وكان يكفي في بعض الأحوال أن يأكل الفلاح وآله ذبيحةً من البقر أو الضأن ليُستَباح دمه ويقال عنه إنه معطِّل لمشروع المَزارع الجماعية، يتعمد أن يذبح الماشية لكيلا تُؤخَذ منه للمشاركة في مشروعٍ من تلك المشروعات، بل كان يكفي لاستباحة الدم والحرية ما هو أيسر من هذه التهم الكبار كتهمة الكسل في الزرع، أو التقصير في تسليم الحصة المفروضة على المحصول، وجريمة هؤلاء جميعًا تدخل في عداد جرائم التعطيل والتثبيط التي تُعاقَب بالإعدام.

وحاقت اللعنة بالأدباء الذين يذكرون أوطانهم بالثناء، ويفخرون بالانتماء إليها، فاتُّهِمَ الشاعر التركماني جمعة مرادوف بالنكسة الرجعية؛ لأنه نظم قصيدة عنوانها «بلدي تركمانستان» عابتها صحيفة الحزب «تركمانسكايا أسكرا» في عددها الصادر في الحادي والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٥١، وقالت في انتقاد الشاعر: إنه لا يختص التركمان السوفيتية بالكلام، بل يعمم القول على جميع بلاد التركمان، ويصورها كأنها جنة على الأرض ... وإنما ينبغي على الشاعر أن يتحدث عن تركمان السوفيتية؛ لأنها إحدى الجمهوريات الأخوات في داخل الاتحاد السوفييتي العظيم.

ولا نحسب أننا نفهم سر انتقال الدعوة الصليبية إلى الدعوة البيضاء، إلا إذا فهمنا أن الرسالة الجديدة جاءت لتحل محل الدعوة الصليبية، كما جاءت لتمتد بها وتستفيد من سوابقها؛ فنحن لا نفهم سر هذا الانتقال على حقيقته إذا فهمنا أن رسالة الرجل الأبيض نسخة مكررة من الحروب الصليبية في جميع تفصيلاتها، ولا نفهمه على حقيقته إذا فهمنا أن اللاحق من الدعوتين يلغي السابق في جميع تفصيلاته، وإنما القول الفصل بين الأمرين أن هناك اختلافًا كثيرًا، وهناك اتفاقًا كثيرًا بين الدعوة التي سلفت والدعوة التي حلت في محلها. وكذلك يكون الحال في كل شيئين حل أحدهما محل الآخر ... ليست سيارة اليوم مناقضة لمركبة الخيل بالأمس، وليست هذه بتلك في جميع أجزائها ومنافعها، ولكنهما — بعدُ — شيء واحد في الغاية، وشيئان مع اختلاف الزمن في الصنعة والتركيب.

أما الأفكار العلمية التي كان لها أثر في نشأة الاستعمار، فأهمها فكرة «استدارة الأرض» وإمكان الوصول إلى مشرقها من الاتجاه إلى آفاقها الغربية.

وهذه الفكرة، في أسلوب تأثيرها على الحوادث، نموذجٌ لسائر الأفكار العلمية في خضوعها لدواعي المصلحة، وفي إخضاعها لتلك الدواعي بالمشيئة والإقناع.

فالأوروبيون الغربيون كانت لهم مصلحة تضطرهم إلى البحث عن طريقٍ للتجارة مع الشرق غير طريق البحر الأحمر، وما جاوره من بلاد العرب والترك العثمانيين، وكانت فكرة استدارة الأرض توافق البحث عن الطريق المقصود وتؤدي إلى تحقيق المصلحة المطلوبة، ولكن هذه المصلحة لم تخلق فكرة الأرض الكروية، ولم تكن وحدها كافية للقيام بالرحلة إلى الآفاق الغربية، بل اجتهد كولمبس سنوات لإقناع أصحاب المصلحة بمصلحتهم، ثم أقنعهم بها فلم يصل إلى ما أراد ولا إلى ما أرادوا من جميع رحلاته، وجاءت خطته في الكشف خاضعة لفكرته العلمية، ولم تكن فكرته العلمية خاضعة لخطته؛ إذ لولا إيمانه باستدارة الأرض لطلب الكشف من طريقٍ آخرٍ، كما طلبه البرتغاليون من طريق الطواف حول القارة الأفريقية.

ويقول المؤلف: «إن دا جاما مر بأماكن عدة على الساحل الشرقي من القارة الأفريقية لتموين السفن بالماء والوقود، والتقط في ميناء (ملندي) الملاح المسلم ابن ماجد الذي شاء الحظ أن يكون من نوابغ عصره في فنون الملاحة الفلكية، فاستطاع بمعونته أن يعبر المحيط الهندي إلى ميناء قليقوت أحد المراكز المشهورة لتجارة الأبازير، فقوبل هنالك مقابلةً لا تبشِّر برجاءٍ كبيرٍ، وكانت حمولته من الحلي الصغيرة والأنسجة الصوفية بضاعةً مزجاة في الأسواق الهندية، ووجد حاكم قليقوت قليل الرغبة في التخلي عن علاقته المجدية بالعرب، الذين كان منهم عنده جالية من التجار بذلت غاية جهدها لإقناعه بالإعراض عن مطالب البرتغاليين، ولكن دا جاما قد استطاع بعد الإلحاح والمشقة أن يجمع مقدارًا من الفلفل والقرفة عاد بها إلى بلاده، وبدأت من ثَمَّ قصة الدسائس الأوروبية الطويلة مع أمراء الهند الوطنيين، واستغرقت رحلة دا جاما سنتين قضى منها ثلاثمائة يوم على متن البحر، وفقد ما يزيد على ثلث بحارته على الأرجح من إصابتهم بداء الأسخربوط.»

فالاستعمار لا يخلق للأمم آدابًا تروج بينها ونتلقاها منه خدمةً لمصلحةٍ أو إيمانًا بعقيدة، وانما تنشأ الآداب الإنسانية وتبلغ مبلغ القوة والرهبة قبل أن تصبح صالحة للاستغلال والادعاء في سياسة المستعمرين ... وهذه الحقيقة جديرة أبدًا أن تتقرر في أذهان الأمم المبتلاة بمطامع الأقوياء؛ لأنها هي الخاسرة إذا لم تفرِّق بين دعوات المستعمرين ونيات المستعمرين؛ فلا مصلحة للعالم في إحباط الدعوات الإنسانية التي ينتحلها المستعمرون، وإنما مصلحة العالم أن يتكشف النفاق عما وراءه، وأن تبقى دعوات بني الإنسان لبني الإنسان وراء كل نفاقٍ واستغلالٍ.

سبحانك اللهم وبحمدك
نشهد أن لا إله إلا أنت
نستغفرك ونتوب إليك

إلى لقاء مع ملخص لكتاب جديد